المحاضرة السادسة :

علاقة السلطة العثمانية في الجزائر برجال التصوف والطرق الصوفية

- **تطور التصوف في الجزائر أثناء العهد العثماني**
- **المرحلة الأولى : مرحلة التحالف والتقارب**
- **المرحلة الثانية : مرحلة الصراع والتصادم**

- **التصوف في الجزائر العثمانية وتطوره:**

لقد مرت العلاقات بين المرابطين والعثمانيين، حسب رأينا بمرحلتين هامتين، وهما:

المرحلة الأولى: مرحلة التحالف والتقارب

وقد اتسمت بالعلاقات الحسنة والتحالف الضمني من الطرفين بغية تحقيق كل مبتغاه، وقد انتهج العثمانيون خلالها سياسة تقارب تجاه المرابطين، تمثلت في عقد التحالفات، واستمالة المرابطين وشيوخ الطرق المرابطية لاحتوائهم، فتحالفوا مع أحمد بن يوسف الملياني الذي كان من أبرز متصوفة الطريقة الشاذلية[i]، وكان يروج لها

في كامل القطر عامة، وفي الجهة الغربية منه خاصة[ii]، فتحالف معهم على محاربة العدو المشترك (الإسبان) من جهة، وسلطة الزيانيين المتحالفة ضد العثمانيين من جهة أخرى، واستمر هذا التحالف طيلة العهد العثماني[iii].

أما في قسنطينة فقد تحالف العثمانيون مع عائلة الفكون الصوفية، وفي عنابة قصدوا عائلة الساسي البوني، التي كانت تمثل السلطة الروحية هناك، وتحالفوا معها، وفي مدينة الجزائر تحالف صوفية الثعالبة مع العثمانيين، فعقدوا مع بابا عروج معاهدة لصد الإسبان الذين كانوا متمركزين بصخرة البنيون، القريبة من شاطئ المدينة[iv]، وفي الشلف طلب العثمانيون من الشيخ الصوفي ابن المعوقل مبايعتهم ومناصرتهم على الزيانيين، فكان لهم منه ما أرادوا، وجهز لهم حملة، وبعث معهم ولديه[v] هذا وبعدما استتب الأمر للعثمانيين في الجزائر، قاموا بتشجيع رجال التصوف وأهل الطرق المرابطية، ثم شاركوا مشاركة فعلية في بناء القبب والأضرحة والمزارات، كما ساعدوا الصالحين في بناء الزوايا والرباطات، وأنفقوا في ذلك أموالا طائلة [vi]، ومنحوهم حرمة وحصانة، وكانت نتيجة ذلك التحالف بين رجال الطرق المرابطية والعثمانيين إعفاءات المرابطين من الضرائب[vii]، وبذلك عاد المرابطون إلى دورهم المتمثل في التعليم والتصوف، والتف الشعب حولهم[viii]، وانتشرت الزوايا في الأرياف والمدن، وحدث تطور كبير في هياكلها وفي وظائفها، وبرز دورها التعليمي والاجتماعي، وانتشرت الزوايا والكتاتيب والقباب، واشتهرت زوايا في هذا المجال، مثل زاوية ابن أعراب، وزاوية آث إسماعيل، وزاوية ابن علي الشريف بآقبوا وزاوية عبد الرحمان البلولي، وزاوية ابن أبي داوود، وزاوية محمد السعدي بنواحي دلس، واستطاعت أن تؤدي دورها لا بفضل عطايا العثمانيين فحسب، بل بفضل ما كانت تملكه الزوايا من أوقاف، وبرزت طرقا مرابطية جديدة، وتفرعت أخرى ونتج إنتاج ثقافي غزير غلب عليه طابع التصوف[ix]، وتسربت طرقا صوفية من المغرب الأقصى وانتشرت.

وعموما فبفعل تلك السياسة التي انتهجها العثمانيون تجاه الطرق المرابطية، انتشرت هذه الطرق، وأخذت تتطور وتزداد نفوذا منذ القرن ١٦م، وتمكنت في ظرف قصير من التحكم في توجهات السكان الروحية ومواقفهم السياسية أمام انحطاط العثمانيين الحضاري[x]، وبذلك تعددت زوايا هذه الطرق، وأصبحت مراكز لتلقين الأوراد والأذكار[xi]، حتى بلغ عدد الزوايا حسب رأي الأستاذ سعد الله في نهاية العهد العثماني ٣٥٥ زاوية عليها ١٩٥٥ مقدما، وتظم ١٦٧٠١٩ من الإخوان، وعدد الشيوخ ٢٠ شيخا معظمهم من الغرباء، ويتلقون الإرشادات من رؤسائهم في العالم الإسلامي، سواء في المشرق أو في المغرب الأقصى[xii].

بتلك السياسة التي انتهجها العثمانيون مع المرابطين للحفاظ على ودهم أو حيادهم، أو دعمهم للجهاد البحري أو أثناء حملاتهم ضد القبائل الثائرة[xiii]، لاقى التصوف كل التشجيع كما سبق ذكره، وانتشرت الأضرحة والقباب، وكثر الاعتقاد في الأولياء، وشيئا فشيئا ابتعد المرابطون عن دورهم، وانتشرت الشعوذة، وساد الجمود، وغابت فلسفة التوحيد، وغابت معها العقيدة الواضحة في الدين[xiv]، حيث اهتم المرابطون ببناء الزوايا وجمع المال مستغلين سذاجة الناس وجهلهم، ولم يسلك طريق التصوف الحقيقي سوى القليل منهم[xv]. وهذا ما كان منتشرا منذ القرن (٩هـ/١٥م).

المرحلة الثانية: مرحلة الصراع و التصادم

تميزت المرحلة الثانية بالصراع والتصادم وكان لكل ذلك أثره على تطور التصوف بالجزائر، ولئن كان العثمانيون قد وفقوا وتمكنوا من احتواء الطرق المرابطية في القرنين ١٦م و١٧م إلا أن العلاقة تغيرت مع القرن أثناء القرنين (١٨و١٩م) حيث تغيرت موازين القوى وقلت مداخيل الجزية وتعفن النظام الضريبي[xvi]، وزاد ظلم العثمانيين وكثرت ضرائبهم التي وقعت على كاهل سكان الأرياف[xvii]، وظهرت طرق جديدة، كالطريقة الرحمانية، والطريقة التيجانية، والطريقة الحنصالية، وتسربت الطريقة الدرقاوية والطريقة الطيبية والتف الشعب حول هذه الطرق وزاد أتباعها

ومريدوها واستغلت هذه الطرق المرابطية تذمر السكان وأعلنت الثورات ضد الوجود العثماني، كثورة محمد بن الأحرش ببايلك الشرق[xviii]، بالتعاون مع الرحمانيين تحت قيادة المقدم عبد الرحمان الربوشي شيخ زاوية رجاس قرب ميلة(xix)، وثورة الدرقاويين ببايلك الغرب[xx]، والتي قادها محمد بن شريف الدرقاوي بالتعاون مع قبائل غريس القادرية[xxi]، وثورة التيجانيين[xxii]، التي قادها الشيخ أحمد التيجاني[xxiii]، في عين ماضي قرب الأغواط.

إن كان العثمانيون قد تمكنوا من إخماد هذه الثورات إلا أن علاقتهم ساءت مع الطرق المرابطية، وأصبحوا يخشونهم، ويترصدون حركاتهم، وبذلك انتهت تلك العلاقة التي بدأت بالتقارب والتشجيع والاحتواء بالحرب والقطيعة، والتضييق، والإعدام والحجز والمحاكمة، فقد أعدموا بعض المشائخ كما هو الحال مع الشيخ سيدي محمد الصادق مرابط أولاد سيدي بن حليمة بالغرب الجزائري[xxiv]، والمرابط ابن قندوز التوجيني الذي قتل في مازونة[xxv]. و ضيقوا الخناق على الشيخ أحمد التيجاني الذي فضل الفرار إلى المغرب الأقصى مثل المرابط الشارف بن تكوك، ومحمد بن السنوسي الذي فضل الهجرة إلى المشرق العربي[xxvi]، والحجز والتضييق على الشيخ محي الدين، شيخ الطريقة القادرية بغريس، وابنه عبد القادر، حيث منعا من أداء مناسك الحج، وحجزا عند باي الغرب، الباي حسن[xxvii].

أما مؤسس الطريق الرحمانية الشيخ محمد بن عبد الرحمان، فنظرا لكثرة أتباعه، وانتشار دعوته، فقد توجهت إليه السلطة العثمانية وعلماؤها بالمكائد والدسائس واتهم بالزندقة، وأثارت السلطة العثمانية حوله الكثير من التهم والشبهات، واستدعي واضطر للمثول أمام المجلس العلمي و حوكم، وبعد مناقشته فيما اتهم به والاستماع إلى حججه، تمت تبرئته،كما ذكر ذلك لويس رين [xxviii].

الخلاصة :

إن ما نستنتجه من هذه المحاضرة هو :

- رغم القطيعة بين الطرق المرابطية والسلطة العثمانية، قد استمرت حتى نهاية الحكم العثماني بالجزائر، بدليل رفض التيجانيين، والقادريين مساعدة باي الغرب (الباي حسن) أثناء الغزو الفرنسي[xxix] إلا أن الطرق المرابطية قد زادت في عهدهم ومع ظلم العثمانيين وغياب دور بعض الطرق ظهرت طرق جديدة كالطريقة الرحمانية، وتحولت إلى ما يشبه أحزاب معارضة عجلت بزوال العثمانيين.
- التطور في التوجه وإيديولوجية بعض الطرق المرابطية لا في النظرة فحسب، بل في المهام أيضا، فمن حيث التوجه بدأت تظهر فكرة التحالف والتعاون بين الطرق المرابطية، وهذا ما تكرس في عهد الأمير عبد القادر، ثم التطور في مهام الطرق والانتقال إلى العمل السياسي والجهادي، والرجوع بالطرق المرابطية إلى دورها الذي وجدت من أجله ليتكرس هذا الدور الجهادي عند دخول فرنسا.

وعموما فقد عرف التصوف أثناء العهد العثماني تطورا كبيرا في الهيكلة والمؤسسات وفي الدور، فإضافة إلى المساجد بنيت الزوايا وزاد عددها، وكثرت الكتاتيب والمعمرات وتولت هذه المؤسسات العملية الاجتماعية، كما تمكنت هذه الطرق من القيادة الروحية للمجتمع الجزائري.